الزيارة الأخيرة

مسرحية في فصل واحد

بقلم أكرم الميداني

« غرفة سجن صغير في كاليفورنيا (زنزانة) لها ابواب . الجدران مدهونة بلون رمادي داكن بارد يوحي بالانعزال وعدم المبالاة من قبل الذين اقاموا بناء السجن ، وهي عارية الا من نافذتين صغيرتين عليهما قضبان حديدية في شكل متواز عند اعلى الجدار الاوسط . امام الجدار الايمن طاولة صغيرة من خشب بسيط وكرسي ، على الطاولة بعض اوراق وكتب وآلة كاتبة . وفي اعلى الطاولة يبدو رف من طابقين ما زالت عليه بعض الكتب . امام الجدار الايسر سرير حديدي ما زال ممهدا كأنه لم ينم عليه احد في الليلة الماضية .

على جانبي الممثل عند نهاية كل من الجدارين الايمن والايسر حاجزا قضبان بطول الجدارين لا يزيد عرض كل منهما على الخمس والعشرين بوصة في مواجهة الجمهور .

في وسط الغرفة الى ناحية وسط الممثل من اليمين يظهر السجين وهو يضع بعض الكتب في صندوق من الورق المقوى بين مجموعة من الصناديق المماثلة . كل شيء حوله يوحي بانه يوشك على مغادرة الغرفة نهائيا .

مصدر الاضاءة على السجين من النافذة الصغيرة اليمنى . ضوء كالشعاع ليس قويا جدا فهو ضوء الصباح ولكنه ينفذ الى الغرفة بنشاط . الممثل مظلم قليلا ، بعد بداية المسرحية بقليل يأتي ضوء مماثل من النافذة اليسرى ويبدو الزائر في الوسط الى اليسار انيقا يتصرف كأنه اتى في زيارة قصيرة وسيمضي بعد حين . بذلته كحلية مقلمة وقميصه رمادي مع ربطة عنق فاتحة . حليق الذقن وشعره لامع، بخلاف السجين الذي يلبس قميصا وسروالا لونهما رمادي اجرب ، شعره قصير ويلبس نظارات طبية .

عند بدء المسرحية تسمع دقات ساعة السجن الكبيرة من الخارج ، سبع دقات حازمة . وبعد ظهور الزائر تضاء الغرفة اضاءة كافية وتبدو محتوياتها ويخف الشعاعان الاتيان من النافذتين وتأتي الاضاءة على السجين والزائر من أعلى الممثل ويظل الضوء خلف النافذتين غير قوي ولكنه يوحي بشكل عينين على الحائط الاوسط العاري .

عندما يتحرك السجين الى مقدمة الممثل تبدو على وجهه وجسمه ظلال قضبان وذلك اشارة الى ان الحائط الرابع للغرفة امتداد لحاجزي القضبان على الجانبين . وعندما يتحرك الزائر الى المقدمة لا تظهر عليه ظلال القضبان . »

الأشخاص

السجين : في الاربعين ، حديثه فيه اتزان المثقف وحيرته واذا غضب فلأنه عاجز عن العثور على اجابة مرضية لما يؤرقه .

الزائر : في الثامنة والعشرين ، في حديثه سخرية ولامبالاة ، لكنه ذكي في حدة ، غير اخلاقي في تصرفه ، ولا يبدو عليه انه مثقل بشيء .

حارسان :

ملاحظة هناك شبه في الملامح بين الزائر والسجين مع فارق السن ..

الزمن

الساعة السابعة صباحا من يوم صحو دافيء في كاليفورنيا . فبراير ١٩٦٠ .

*

السجين

(وقد احس بالزائر بعد ظهوره) ..... هذا انت ؟

الزائر

ألم تكن تتوقعني ؟

السجين

بلى ، ولكنك تأخرت هذه المرة .. دائما وانا انتظر قرار المحكمة كنت تأتي قبل وصول النتيجة بساعات .

الزائر

هذه المرة أردت ان ابعث في نفسك الامل .

السجين

(في عتاب) لأنني لم أعد بحاجة اليه !

الزائر

وهل اصبحت بعد رفض تأجيل التنفيذ هذه المرة لا تحتاج الى الامل ؟ كلا انت اليوم بحاجة اليه اكثر من اي وقت مضى . وانا في طريقي اليك سمعت الساعة . لم يبق على التنفيذ سوى ثلاثين دقيقة . على الاقل جعلتك خلال الايام الماضية تنتظر شيئا . ان لم يكن الامل فهو انا .

السجين

لم اذكرك خلال السنوات الاثنتي عشرة الماضية قدر ما ذكرتك امس واول امس (يرتفع صوته قليلا) فانت المسؤول عن هذا المصير الذي سأنتهي اليه .

الزائر

انا المسؤول ؟ لماذا ؟ لماذا تفكر بالامور هكذا ؟ لماذا لا اكون المسؤول عن سنوات عزلتك وقراءاتك . سنوات تكوينك حتى اصبحت كاتبا يقرأ لك العالم . ويهتز اذا رفضت المحكمة تأجيل انهاء حياتك. انا الذي اعطيتك هذه السنوات .

السجين

(بلهفة) هل حدث شيء بعد الرفض ؟ قل لي .. حدثني .. ماذا فعل الكتاب في باريس ؟. هل ارسلوا برقيات هذه المرة امتظاهروا؟

الزائر

يبدو ان القضية لم تعد مجرد امل بل اصبحت زهوا ، انت اليوم كاتب تقرأ لك الجماهير .. ويستهويك اهتمامها .. يعجبك انفعال الناس لمصيرك .

السجين

وهل في هذا شيء ؟ انا هنا اصبحت صاحب رسالة.. اتحسدني؟

الزائر

كلا لا احسدك .. فانا اعرف انفعال الجماهير ايضا .. الا تذكر مغامراتنا ؟.. كانت اصلا مدفوعة بالشيء نفسه الذي جعلك تكتب.. كأن الغرض منها اهتمام الجماهير ..

السجين

مغامراتنا ؟... انا لم اكن معك .

الزائر

تذكرت .. هذه المغامرات قمت بها قبل ان تولد انت (مسترجعا الذكرى بحنان) كانت انباؤها تنشر في الصحف المصورة في المكان نفسه الذي تنشر فيه اخبار كتبك ..

السجين

ومن اجل هذه المغامرات ستنتهي حياتي بعد لحظات .. أليس غريبا ان اموت عقابا على اشياء فعلتها انت ؟

الزائر

اتظن انك بعد ان اصبحت صاحب رسالة ستنجو من المصير ؟. من يدري لعلك سائر اليه الان لانك صاحب رسالة .. انك اليوم احسن حظا .. لن يسألك احد ان تحمل حبل مشنقتك بيدك .

السجين

ولكنك انت ...

الزائر

نعم انا المجرم .. وانت الذي ستموت .

السجين

وانت ؟!

الزائر

لا تخف .. سيقوم اناس اصحاب رسالة ، مثلك ، ويطالبون براسي .. سيقولون : هذا الذي كان ينبغي ان يمحى عن وجه الارض.. اقتلوه .. انه الشر .

السجين

اذن انا اموت من اجلك !

الزائر

تموت ليطمئن الناس ان الشر قد زال .

السجين

وهل يعرفون انك انت الشر .. وانت الذي ستبقى ..؟

الزائر

قد يعرف بعضهم ولكنهم لن يستطيعوا تغيير شيء .. ثم ان كثيرين يؤمنون بنظريتي ...

السجين

نظريتك ..؟ وهل اصبحت لك نظرية ؟

الزائر

ارجوك .. بدون اهانات .. انا دائما صاحب نظريات .

السجين

حقك علي .. لا اريد ان نتشاجر في ساعتنا الاخيرة .

الزائر

ساعتك وحدك .

السجين

ساعتي وحدي !! آسف فقد قاطعتك . ما هي نظريتك التي يؤمن بها الكثيرون ..؟

الزائر

ككل النظريات .. في منتهى البساطة .. انت اليوم ستموت من اجل مغامراتي انا .. اليس كذلك ؟

السجين

نعم ؟

الزائر

وانت هنا بعزلتك والمعارف التي اصبحت تشغل راسك وكتبك التي غمرت الاسواق .. كل هذا بسببي انا (يحاول السجين مقاطعته لكنه يمضي مسرعا في الحديث) بدوني انا وجودك كان مستحيلا .. لهذا فانت لست شيئا .. ما زلت انا هو الشيء الحقيقي .. اذن فهؤلاء الناس يرون ان تنفيذ الحكم سينصب علي انا .. وهذا عدل .

السجين

وهؤلاء الا يعرفونني انا .. الانسان الجديد الذي ولد بلا ذنب..؟

الزائر

انت تضحكني .. هؤلاء لا يؤمنون سوى بالانسان الذي يولد مذنبا .. وانت ولدت تحمل على كتفيك اوزاري .. وقد حان الوقت لتدفع الثمن ..

السجين

لا اظنك تقول الحق .. انت خبيث دائما .. تريد ان تقنعني بان ما سيحدث هو العدل ..اتريد ان تقول لي ان الذين يملكون الدنيا صياحا في باريس يؤمنون ايضا انني ولدت احمل في جوانبي ذنوبي (مستدركا) او ذنوبك ؟..

الزائر

انهم لا يناقشون هذا ..

السجين

اذن لماذا يحتجون ؟

الزائر

هذا شيء اخر .. انهم يحتجون لانهم يرون ان قتلك هو ذنب جديد .. مجرد محاولة لايقاف هذه الحلقة . الايقاع الزمني الرهيب.. انت .. (مستدركا) لا مؤاخذة انا اقتل .. ثم أقتل ثم يقتل الذي يقتلني .. وهكذا..

السجين

انت لعين .. حتى اصدقائي أتيت اليوم لتجردني منهم ، لا بد ان احدا منهم يحبني .. ولهذا فهو يدافع عن حياتي ..

الزائر

لا شك في هذا .. لا اكره شيئا قدر كراهيتي لهذا الذي يسمونه الحب .. نعم بعضهم يحبك ولا يتصور ان تنتهي حياتك على هذا النحو ... بينما لا يستطيع ان يفعل شيئا .

السجين

(بعد لحظة) ... لقد خطرت لي فكرة ... (ينهض الى مقدمة الممثل وينادي ..) يا سجان .. يا سجان ..

الزائر

ماذا تفعل ؟

السجين

انادي السجان .. ليقبض عليك ... ستكون مفاجأة للعالم عندما يعلن النبأ .. قبضت على الفاعل الاصلي بنفسي هنا .. في هذه الزنزانة .. ستذهب انت الى المشنقة .. هذا هو العدل . انا لم افعل شيئا بل انت الذي فعلت ولتلق جزاءك ! يا سجان يا سجان !!

الزائر

(هادىء الاعصاب) اجلس .. اجلس انت تفعل المستحيل ..

السجين

(مستمرا) يا سجان .. يا سجان .... المستحيل ؟.. لماذا ؟

الزائر

لان الحارس لن يسمعك ..

السجين

وهل يسمعك انت اذا ناديت ؟

الزائر

ولا انا .. لن يسمع احدنا ما دمنا نجلس معا ..

السجين

ما هذا .. اهي احدى الاعيبك ؟

الزائر

كلا انه الواقع .. السجان لن يسمع احدنا الا اذا كان بمفرده .. وانت لا تستطيع مغادرة المكان حتى بفرض انني بقيت وحدي لناديه.. واصنع معك معروفا .. فكرتك مستحيلة ..

السجين

ولكننا لسنا شخصا واحدا فنحن مختلفان ..

الزائر

هذه هي المشكلة .. ان تصل بصوتك الى العالم فيعرف اننا لسنا شخصا واحدا .. او على الاقل ان يصل صوتك الى السجان خارج هذه الزنزانة ..

السجين

انت تحطمني .. لن اتوقف عن النداء .. يا سجان .. ما زالت لدي عشر دقائق استطيع ان افعل خلالها كل شيء .. يا سجان .. يا سجان ..

الزائر

وفر على نفسك العناء .. ان اسعد لحظات لقاء المصير هي التي تمر هادئة ..

السجين

ولكنها فرصة نادرة .. كيف لم تخطر لي قبل الان .. لماذا لم اناد السجان في احدى زياراتك السابقة .. كنت اقول له .. هذا هو الذي تبحث عنه .. المجرم الاصلي .. لو فعلت لكنت الان حرا طليقا..

الزائر

لا شك ان الذي تقوله جميل .. ولكنه ليس ممكنا ..

السجين

كيف .. ألست انت المجرم الحقيقي ؟

الزائر

نعم .

السجين

اذن ؟

الزائر

ما ليس ممكنا هو انك لن تستطيع ان تسلمني .

السجين

انت لست هنا لاجئا سياسيا .. انت ..

الزائر

(مقاطعا) هدىء روعك .. انا مجرم .. لقد اعترفت .. انت تنسى ؟؟.. قلت لك ان السجان لن يسمعك ونحن معا !! لن يسمع احدنا الا اذا كان بمفرده .

السجين

(متحايلا) لماذا لا تذهب اليه وحدك وتعترف !؟

الزائر

لااستطيع .

السجين

الا تريد ان تضيف الى افضالك فضلا اخر ؟.. سأصرف حياتي بعد ذلك لتخليد ذكراك .

الزائر

اذا فعلت فستعود الى هنا في اليوم التالي .

السجين

ارجوك .. اذهب الان الى السجان .. وقل له انك انت الفاعل الاصلي واثبت له براءتي .. لقد قلت له مرارا انني بريء .. ولم يصدقني .. لماذا لا تذهب الى المشنقة بدلا مني .. سأختبىء تحت السرير .. شكلك يطابق الصور التي نشرتها الصحف ايام المحاكمة الاولى .. لن يشك احد ولا حتى منفذ الحكم ..

الزائر

ولكنهم اصبحوا يعرفونك الان ولن تنطلي عليهم هذه الحيلة ... والسرير لا يصلح لان تختبيء تحته .. وفوق هذا فانا لا استطيع .. لا استطيع .. انه لن يراني ..

السجين

لن يرى ؟.. ولن يسمع ؟.. أي سجان هذا ؟ من عينه سجانا ؟

الزائر

لم اقل لك انه لا يرى ولا يسمع .. قلت انه لن يراني انا ولن يسمعك انت ..

السجين

لن يراك انت ؟.. لماذا ؟

الزائر

هذا هو السر الذي استطعت به زيارتك طوال هذه السنين .

السجين

هل فعلت شيئا كي تزورني .. اهي تعويذة ام مجرد وفاء ؟

الزائر

لا تعويذة ولا وفاء .. بل ان شروط الزيارة معقدة .. وبالنسبة لي تكاد تكون مستحيلة .. لهذا فانني ازورك دون ان يراني السجان ..

السجين

هكذا بكل بساطة ؟

الزائر

نعم هكذا بكل بساطة .. الا تريد ان تقتنع بأن هذا مستحيل ؟

السجين

انت لا تود مساعدتي .. تقول انك اتيت بي الى هنا وهيأت لي الفرصة لاصبح اديبا كبيرا .. لماذا لا تتم جميلك وتجعلني ...

الزائر

ماذا ؟

السجين

اعيش .. اريد ان اعيش .. انت لا تعرف كم هي رائعة الحياة.. فلهذا لا تكف عن التخريب .. اما انا فأعرف ... اريد ان اعيش ..

الزائر

ولكنك ستعيش .. دائما يقول الناس اذا مات اديب مثلك .. انه لم يمت فآثاره حية باقية .

السجين

اريد ان اعيش فقط .. لن اكتب شيئا بعد الان .. لتذهب آثاري الى الجحيم .. آثاره باقية .. هكذا كلام نقاد فيه شماتة .. لقد مات وبقينا نحن ومعنا آثاره ، هذا ما يريدون قوله حقيقة ..

الزائر

لا تجعل لحظاتك الاخيرة مريرة .. هؤلاء النقاد هم الذين رفعوا اسمك عاليا وهم الذين سيبكون مصيرك ..

السجين

لا اريد .. لا اريد ان تبقى بعدي تتمتع بكل شيء .. انا لا اصدقك .. لم اصدقك مرة واحدة .. (يعود الى النداء) يا سجان.. يا سجان .. يا سجان ..

(اثناء نداء السجين يحدق الظلام بالمنطقة التي يقف فيها الزائر ويختفي .. ويبقى السجين وحده دون ان يلاحظ ذلك ..) يا سجان..

صوت السجان

نعم

السجين

(يملؤه الامل) لقد سمعني .. لقد سمعني .. (يبدو السجان آتيا من مقدمة الممثل عند الجانب الايسر) يا سجان .. حالا .. (في غبطة شديدة) حالا .. انت هنا .. اخيرا وجدته .. الفاعل الاصلي.. اقبض عليه .. انه هنا في هذه الزنزانة .. (يلتفت حوله فلا يجد احدا) .. هنا .. كان هنا .. مستحيل .. الفاعل الاصلي .. انا بريء .. (باستسلام) انا بريء .. انا بريء (يهدئه السجان ويأتي سجان آخر .. ويمضي السجين معهما بهدوء ويملأ الظلام الممثل بينما تدق الساعة النصف) .

نيويورك

اكرم الميداني